بسم الله الرحمن الرحيم

رواية في التزكية والسلوك · سبعة أجزاء

عِش كعابد

من اليقظة إلى القرب
بصحبة رجل لا يلتفت إليه أحد

تنبيه: الشخصيات من الخيال، وهذه رواية للاعتبار وليست مرجعاً في الفتوى

الفهرس

محتويات الكتاب

م رسالة مفتوحة — كلمة قبل أن نبدأ، من أخيك
١ الجزء الأول — اليقظة
01 الفجر الذي لا يشبه الفجر
02 دفتر الحساب
03 باب التوبة
⚖ ميزان الجزء الأول — في الغفلة واليقظة
٢ الجزء الثاني — الطريق
04 ورد الصباح
05 الرجل الذي يحتاج إلى دليل
06 صلاة لا يُسمع فيها إلا القلب
⚖ ميزان الجزء الثاني — في الذكر والصحبة والخشوع
٣ الجزء الثالث — الأثر
07 اليد الفارغة
08 البحر لا يعتذر
09 آخر الدفتر
⚖ ميزان الجزء الثالث — في الغنى الأصيل
• استراحة بين الطريقين: المقام والحال
٤ الجزء الرابع — القلب الحاضر
10 العين التي لا تنام
11 الذي لا يريد شيئاً
12 الكذبة الصغيرة
⚖ ميزان الجزء الرابع — في الباطن والظاهر
٥ الجزء الخامس — التسليم
13 اعقلها وتوكل
14 دفتر الشكر
15 حياء الخلوة

⚖ ميزان الجزء الخامس — في الأخذ والتسليم
٦ الجزء السادس — المودة في القربى
16 بين يدي الحسين
17 أدب الزيارة
18 حب بلا غلو
⚖ ميزان الجزء السادس — في المودة والاعتدال
٧ الجزء السابع — القرب
19 كيف تكون محمدي المنهج والسلوك
20 المحبة
21 كلنا فقراء
22 ما ينتفع به
خ خاتمة الكتاب — وصايا العابد
⚖ ميزان الكتاب — في ختام الطريق
ت توثيق — ملاحظة المؤلف عن المصادر

رسالة مفتوحة

كلمة قبل أن نبدأ، من أخيك

م

يا أخي، قبل أن تقرأ أول سطر: هذه رواية، شخصياتها من خيالي، لكن ما بين سطورها من آيات وأحاديث وأقوال وكتب هو مما يعرفه المسلمون ويتداولونه، وسأذكر لك مصدر كل شيء بجواره، وحيث يختلف العلماء سأقول لك صراحة إنهم اختلفوا. ولست شيخاً ولا مفتياً، وما أكتبه ليس فتوى، فإن كان بين يديك سؤال في حلال أو حرام فاسأل أهل العلم الموثوقين.

وموضوع الكتاب **التزكية**: أن يجاهد الإنسان نفسه ليصفو قلبه ويحسن عمله، وهي معنى قوله تعالى في سورة الشمس: «قد أفلح من زكاها». وقد سمّى كثير من أهل العلم هذا الباب **التصوف**، وأنكر آخرون بعض ما نُسب إليه من ممارسات، وأقرّ كثير منهم بأصل التزكية وبصدق جماعة من أهلها. وسأعرض لك من هذا الباب ما اتفقت عليه كتب الأقدمين الكبار، وأنبّه إلى مواضع الاعتراض، فلا أمدح بلا دليل ولا أذم بلا دليل.

وستجد فيه، كما في كتابي السابق، **عيناً** ترى التفاصيل و**عقلاً** يحلل. فرتّبته في سبعة أجزاء: **اليقظة**، فـ**الطريق**، فـ**الأثر**، ثم **القلب الحاضر**، فـ**التسليم**، فـ**المودة في القربى** (آل البيت)، فـ**القرب**. وفي كل جزء مطلع يصوّر المكان والناس، وفي آخره ميزان يحلل الفكرة، وبينهما الفصول.

وإن شعرت وأنت تقرأ أن همّك أثقل من أن يحتمله كتاب، وأن نومك وطعامك وتركيزك قد اختلّت منذ أسابيع، فهذا ليس ضعف إيمان، بل علامة تستدعي أن تحدّث طبيباً أو مختصاً نفسياً إلى جانب ما في هذا الكتاب. فالدين والطب لا يتعارضان.

اشرب شايك، وتعال.

الجزء الأول

١ اليقظة

قبل الفجر بساعة، كانت الإسكندرية ما تزال تغتسل بالظلمة. البحر عند الأنفوشي يتنفس بصوت منتظم كنائم كبير، والموج يضرب الصخور ثم ينسحب تاركاً رغوة بيضاء تتلاشى كأنفاس. رائحة الملح والسمك المثلّج وخشب القوارب الرطب تعلو على كل رائحة، وفي المرسى أضواء صغيرة تهتز على الماء، ومراكب الصيد متراصّة كأكتاف رجال متعبين.

في الزقاق الضيق المؤدي إلى الجامع، قطّ يلعق كفه على عتبة محل مغلق، وعربة فول تتأهب وفي قِدرها بخار يتصاعد بحذر، ورجل عجوز يجرّ سلة خبز على كتفه ويتمتم بكلمات لا تُسمع. وفوق الأسطح، القباب والمآذن الباهتة تتلألأ كأنها تتذكر شيئاً قديماً.

ثم يرتفع صوت الأذان. لا يرتفع دفعة واحدة، بل ينبت: صوت من مئذنة، فآخر من بعيد، فثالث يلحق به، حتى يصير الفضاء كله نداءً واحداً يتموّج فوق الماء.

وفي هذه الساعة بالذات، يمرّ بين الجالسين على الأرصفة والنائمين في السيارات والمتأخرين عن ليلهم، رجل لا ينام، يحمل في يده هاتفاً ما زال مضاءً، وفي صدره فراغ لا يعرف اسمه. ولو سألته: ماذا تريد؟ لما عرف الجواب.

المقام الأول

01

الفجر الذي لا يشبه الفجر

كان **هاشم** في السادسة والثلاثين، مهندساً في شركة لوجستيات في ميناء الإسكندرية، ولم يذق نوماً حقيقياً منذ شهور. يستلقي على السرير والهاتف على صدره، يقلّب الشاشة بإبهام آلي، فيرى وجوهاً وأخباراً وإعلانات وضحكات ملفقة، ثم يرفع عينيه فيجد السقف كما هو، والفراغ كما هو.

في تلك الليلة، حين دقت الساعة الرابعة والنصف، ارتدى معطفه وخرج دون هدف. مشى على الكورنيش بلا وجهة، والريح تلسع وجهه برذاذ ملح، والمصابيح الصفراء ترتجف على الأسفلت المبلل. ثم سمع الأذان، فوجد قدميه تقودانه إلى مسجد أبي العباس المرسي، كأنهما تعرفان الطريق أكثر منه.

دخل. في الداخل هواء دافئ بنكهة البخور القديم والسجاد، وأعمدة رخامية تصعد إلى قبة مزخرفة بألوان باهتة، ومصابيح نحاسية تتدلى كأنها تنتظر. صفّ هاشم قدميه في آخر الصف، فرأى إلى يمينه رجلاً سبعينياً نحيلاً، بجلباب أبيض باهت وقلنسوة قديمة، يصلي ببطء غريب. لم يكن يصلي كمن يؤدي واجباً، بل كمن يُصغي.

بعد الصلاة، جلس هاشم على عتبة قرب الباب يحدّق في نعليه. سمع خطوات خفيفة، وجلس إلى جواره الرجل نفسه. قال بصوت هادئ دون أن ينظر إليه: «الحمد لله أنك تشعر بأنك لا تشعر.»

انتفض هاشم: «معذرة؟»

ابتسم الرجل: «رأيتك واقفاً تتحرك كمن يحاول أن يتذكر شيئاً ولا يتذكر. وأكثر الناس لا يلاحظون أنهم غافلون. أنت لاحظت، وهذه أول الطريق.»

سأله هاشم: «ومن أنت؟»

«سالم. كنت صياداً أربعين سنة. لست شيخاً ولا أحب أن يناديني أحد شيخاً. قل لي: عم سالم.»

الدرس الأول: اليقظة

قال عم سالم: «علماء السلوك يضعون لهذا الطريق منازل. ومن أشهر من رتّبها **أبو إسماعيل عبد الله الأنصاري الهروي** (القرن الخامس الهجري) في كتابه *منازل السائرين*، فجعل أولها **اليقظة**: أن تنتبه من نوم الغفلة، وتدرك أنك مسافر وأن لك وجهة. ثم شرح الكتاب **ابن القيم** في *مدارج السالكين*، مع نقد لبعض ما رآه فيه مخالفاً.»

ثم أضاف: «واليقظة ليست شعوراً جميلاً، بل **قرار**. والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» (رواه البخاري). فمن عرف أنه عابر سبيل بدأ يسأل: إلى أين؟»

نظر هاشم إلى الأرض: «أنا لا أشعر بشيء في الصلاة يا عم سالم. أقف وأركع وعقلي في الأرقام والرسائل.»

قال عم سالم: «ولماذا جئتَ الليلة إذاً؟»

صمت هاشم. ثم قال: «لا أعرف. كأني ضجرت من الضجيج.»

ضحك عم سالم ضحكة قصيرة: «هذا ما أقوله. هذه ليست ضجراً. هذه **دعوة**. وقد قال الله تعالى: «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا» (العنكبوت 69). فاجعل الليلة بداية جهاد صغير: لا أكثر من خمس دقائق بعد كل صلاة تجلس فيها بلا هاتف، وتسأل نفسك: أين أنا؟»

وصية العابد

اليقظة قرار لا شعور. حين تلحظ غفلتك فقد بدأت الطريق، فاجعل لها وقتاً صغيراً ثابتاً كل يوم.

المقام الثاني

02

دفتر الحساب

أعطاه عم سالم يوم الجمعة دفتراً صغيراً بغلاف أخضر، وقلماً رصاصاً مبرياً بسكين. كانا يجلسان على الصخور عند المرسى، والشمس تميل، والصيادون يصلحون الشباك بأصابع تعرف عقدتها من غير نظر. رائحة الحبال المبللة والدخان تتصاعد، وقوارب تتمايل على الماء الرمادي.

قال عم سالم: «اكتب كل ليلة قبل النوم. ثلاثة أسئلة فقط.»

الدرس الثاني: المحاسبة

قال عم سالم: «يُروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: **حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا**. وقد اشتهر **الحارث المحاسبي** (القرن الثالث الهجري) بهذا الباب حتى لُقّب به، وله كتاب *الرعاية لحقوق الله*. وجعل **الغزالي** في *إحياء علوم الدين* كتاباً كاملاً للمحاسبة والمراقبة، ورتّب فيه ما يشبه برنامجاً: أن تضع لنفسك شرطاً في أول يومك، ثم تراقب نفسك في النهار، ثم تحاسبها في المساء، فإن قصّرت لمتها لوماً رفيقاً وأعدت.»

وأعطاه الأسئلة:

1. **ما الذي أدّيته لله اليوم؟** صلاتي، وأين كان قلبي فيها؟
2. **ما الذي أدّيته لخلقه؟** أهلي، وعملي، وكلمتي. هل ظلمت أحداً بكلمة أو وقت؟
3. **ما الذي أخذته من نفسي أكثر من حقها؟** نوماً مفرطاً، أو شاشة، أو غضباً.

ثم قال بجدية رقيقة: «وانتبه: المحاسبة غايتها **الإصلاح** لا **التعذيب**. والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «يسّروا ولا تعسّروا» (متفق عليه). فمن جعل محاسبته جلداً للنفس قتل رغبته في الطريق. اكتب، ثم قل: يا رب، هذا ما كان، فأعنّي على غد.»

في أول ليلة كتب هاشم ثلاثة أسطر فقط، وكلها أسئلة بلا جواب. وفي الليلة الخامسة وجد أنه يتذكر وجوهاً لم يلتفت إليها طوال النهار. وفي الليلة العاشرة وقف عند السؤال الثالث ولم يكتب شيئاً، لأن الإجابة كانت واضحة جداً، وكانت: هاتفه.

وصية العابد

ثلاثة أسئلة كل ليلة: ماذا لله؟ ماذا لخلقه؟ ماذا أخذت من نفسي أكثر من حقها؟ ثم أصلح برفق، ولا تجلد.

المقام الثالث

03 باب التوبة

عاد هاشم إلى عم سالم بعد أسبوعين وهو مطأطئ الرأس. جلسا على الدرج الحجري المطل على البحر، والموج يضرب الأرصفة بتثاقل. رائحة الطحالب والخبز الساخن من فرن قريب، وصوت بائع كعك بعيد يتكرر.

قال هاشم: «عدتُ إلى ما كنت عليه. ظننت أني تغيرت، لكنني سهرت ليلتين على الهاتف. لا فائدة.»

صمت عم سالم طويلاً، ثم قال: «لماذا تقول لا فائدة؟»

الدرس الثالث: التوبة والرجاء

قال عم سالم: «لأنك تظن أن الطريق خط مستقيم لا انتكاس فيه. وهو ليس كذلك. يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «كل بني آدم خطّاء، وخير الخطّائين التوابون» (رواه الترمذي وابن ماجه وحسّنه بعض أهل الحديث). ويقول الله تعالى: «قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً» (الزمر 53).»

ثم قال: «وذكر العلماء، كالنووي في *رياض الصالحين*، شروط التوبة: **الإقلاع** عن المعصية، و**الندم** عليها، و**العزم** ألا يعود، وإن كانت تتعلق بحق إنسان فيُرَدّ إليه حقه. ومن قال لنفسه: لا فائدة، فقد أضاف إلى معصيته معصية

أخطر منها: القنوط.»

وأضاف: «وتعلّم ما يسمّيه أهل السلوك **الخوف والرجاء**. هما كجناحي الطائر: إن اختل أحدهما سقط. من غلب عليه الخوف يئس، ومن غلب عليه الرجاء أمن واتّكل. وفي الحِكَم العطائية لابن عطاء الله السكندري، وهو من أبناء هذه المدينة (القرن الثامن الهجري)، قوله: «من علامات الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل». أي أن من تعلّق بعمله وحده يضعف رجاؤه حين يزلّ، أما من تعلق برحمة الله فلا يكسره الزلل.»

ثم قال بحنان: «قم الآن، توضأ، وصلِّ ركعتين، وقل: يا رب، عدتُ. وغداً أمسك الدفتر.»

وصية العابد

لا تقل «لا فائدة». كل سقوط يمكن أن يصير بداية. تُب: أقلع، وندم، واعزم، وارجع بلا قنوط.



ميزان الجزء الأول

في الغفلة واليقظة

لا يعرف أكثر الناس الغفلة، لأن الغفلة بطبيعتها لا تُرى من داخلها. فكما أن النائم لا يعلم أنه نائم، فالغافل لا يعلم أنه غافل، ولا تبدأ يقظته إلا حين يمرّ بما يوقظه: صدمة، أو سؤال، أو وجه عجوز في الفجر.

وقد قام هذا الجزء على ثلاث درجات متتابعة. **الدرجة الأولى: اليقظة**، وهي إدراك النقص. **الدرجة الثانية: المحاسبة**، وهي تحويل الإدراك إلى سجل: فالشعور وحده يتبخر، والمكتوب يبقى. **الدرجة الثالثة: التوبة**، وهي ألا يتحول السجل إلى سجن، وأن يبقى في النفس مكان للرجاء.

وفي هذا الترتيب حكمة. فمن بدأ بالتوبة قبل اليقظة تاب عمّا لا يرى. ومن بدأ بالمحاسبة قبل الرجاء انهار تحت ثقل السجل. والعارفون بالنفس يعلمون أن **اللوم المسرف** ليس زهداً، بل كبر مقلوب: فمن يعاقب نفسه بقسوة يظن أنه كان يجب أن يكون كاملاً.

وخلاصة هذا الجزء: **اليقظة ميلاد، والمحاسبة تربية، والرجاء هواء، ومن فقد واحداً اختنق.**

الجزء الثاني

٢ الطريق

الظهيرة عند قلعة قايتباي. الشمس تضرب الحجارة الصفراء فتلمع كأنها تصهر الحجر، والبحر خلف السور أزرق قاسٍ تتناثر عليه نقط الزبد. على الصخور المسطحة عند قدم القلعة صبية يغطسون ويقفزون وأجسادهم تلمع، وعلى الرصيف باعة ترمس وذرة وأكواب عصير بخار الثلج يتصاعد منها، وسياح يلتقطون الصور بإيماءات متعجلة.

في الطرف البعيد من الميناء، تحت ظل جدار قديم، رجل جالس يمسك خيطاً من الخرز بين أصابعه، ويحرك شفتيه بلا صوت. لا أحد ينظر إليه. وعلى بعد خطوات منه شاب يتحدث في الهاتف بصوت عالٍ، وآخر يصرخ على صاحبه، وسيارة تطلق بوقها بلا سبب.

في هذا الجزء يتعلم هاشم أن للطريق أدوات وأدباً: أن يذكر الله دون أن يصير الذكر عادة بلا روح، وأن يعرف متى يحتاج دليلاً وكيف يعرف الدليل الصحيح من المدّعي، وأن تتحول صلاته من حركات إلى حضور.

المقام الرابع

04 ورد الصباح

قال عم سالم وهما يمشيان على الكورنيش في الصباح الباكر: «ستحتاج إلى **ورد**. شيء قليل ثابت، لا كثير متقطع.»

كان الضباب الخفيف يرتفع من البحر، وأضواء السفن البعيدة تبدو كنجوم تعثرت. وعلى الرصيف رجل يغسل زجاج محله بالماء وقطعة قماش، وصبي يوزّع الجرائد على الأكشاك، وكل شيء يتحرك كأنه يستعد.

الدرس الرابع: الذكر

قال عم سالم: «الذكر من أعظم أبواب هذا الطريق. قال الله تعالى: «فاذكروني أذكركم» (البقرة 152)، وقال: «ألا بذكر الله تطمئن القلوب» (الرعد 28). وروى مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «سبق المفرّدون»، قالوا: وما المفرّدون؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات». وفي الحديث القدسي المتفق عليه: «أنا عند ظنّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني».»

ثم قال: «وجعل أهل الطرق لكل سالك **ورداً** يومياً من الأذكار. وأبسطه ما ورد في السنة: الاستغفار، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إني لأستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرة» (رواه البخاري)، والصلاة عليه،

فمن صلى عليه صلاة صلى الله عليه بها عشراً (رواه مسلم)، وكلمة التوحيد.»

وأعطاه ورداً بسيطاً بعد الفجر: **مئة** استغفار، و**مئة** صلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، و**مئة** «لا إله إلا الله». وقال: «والعدد ليس سحراً. المهم **الحضور**: أن تعرف ما تقول. مئة مرة بقلب غافل أقل من عشر بقلب حاضر. وإن عجزت فاجعل عدداً أقل يناسب طاقتك، ولا تُتعب نفسك بأكثر مما تحتمل.»

وأضاف تحذيراً: «والذكر لا يغني عن الفرائض. فمن ترك الصلاة وذكر الله بالتسبيح فقد قلب الميزان. وقد قال العلماء: خير الأمور أوسطها.»

وصية العابد

وردٌ قليل ثابت بقلب حاضر خير من كثير متقطع بقلب غافل. ولا يغني الذكر عن الفرائض.

المقام الخامس

05

الرجل الذي يحتاج إلى دليل

سأل هاشم عم سالم ذات مساء وهما في المقهى الصغير المطل على الميناء: «سمعت الناس يتحدثون عن **الطرق** وعن **الشيخ**. هل أحتاج أن أنتمي إلى طريقة؟ وما هذه الطرق؟»

وضع عم سالم كوب الشاي ببطء. كان المقهى مضاءً بمصباح أصفر واحد، وبخار الشاي يلتف حول وجهه المجعد، وحوله أصوات النرد على الطاولات ودخان الشيشة.

الدرس الخامس: الصحبة والضوابط

قال عم سالم: «سأحكي لك ما أعلم وأنا أخطئ وأصيب. فكرة **الصحبة** قديمة في هذا الباب: أن يتعلم السالك من إنسان سبقه ويثق بعلمه وصدقه. ومن أقدم من تحدث في الأحوال والمقامات في مصر **ذو النون المصري** (القرن الثالث الهجري) من أخميم. وفي القرن السابع الهجري ظهر في مصر **أبو الحسن الشاذلي** (توفي في الصحراء الشرقية وهو في طريقه إلى الحج)، وتلميذه **أبو العباس المرسي** الذي دُفن في مسجده هذا الذي صلّيت فيه، وتلميذه **ابن عطاء الله السكندري** صاحب الحِكَم.»

ثم أضاف: «ومن أشهر الطرق في مصر وغيرها: **الشاذلية**، و**الأحمدية البدوية** نسبة إلى أحمد البدوي في طنطا، و**البرهانية الدسوقية** نسبة إلى إبراهيم الدسوقي في دسوق، و**الرفاعية** نسبة إلى أحمد الرفاعي، و**القادرية** نسبة إلى عبد القادر الجيلاني، و**النقشبندية**. وتُنظَّم هذه الطرق في مصر عن طريق جهة رسمية هي المجلس الأعلى للطرق الصوفية.»

نظر هاشم إليه: «وهل كلها صحيحة؟»

قال عم سالم: «هنا أحذرك. اختلف العلماء. منهم من عدّ هذه الطرق وسائل لتزكية النفس ما التزمت بالكتاب والسنة، ومنهم من أنكر بعض ما نُسب إليها من أمور رأوها بدعة. وقد انتقد ابن تيمية وابن القيم بعض ممارساتها في مواضع من كتبهما، وفي الوقت نفسه ذكرا أن في المنتسبين إلى هذا الباب صادقين مجتهدين. فلا تحكم عليها بكلمة واحدة، ولا تدخلها بلا علم.»

ثم قدّم له ما يُنسب إلى **الجنيد البغدادي** من قوله: «علمنا هذا مضبوط بالكتاب والسنة.» وقال: «فهذا هو الميزان. فإن عرض عليك أحد شيئاً يخالف الكتاب والسنة فاتركه، ولو كان في ثياب بيضاء ولحية مهيبة.»

خمس علامات لمن تأتمنه على قلبك

1. **علم بالشرع:** يعرف الحلال والحرام ولا يتجاوزهما.
2. **عمل به:** يرى الناس صلاته وصدقه وخلقه قبل كلامه.
3. **تعفّف عن مال الناس:** لا يطلب منك مالاً بغير حق ولا يجعل الطريق تجارة.

4. **رحمة بالخلق:** لا يتكبر، ولا يزدري أحداً، ولا يفرّق بين غني وفقير.

5. **خلو من الغلو والدعاوى:** لا يدّعي العصمة، ولا يأمرك بما يخالف الشرع، ولا يقطعك عن أهلك وعملك.

وأضاف: «وفي الحِكَم: «لا يخاف عليك أن تلتبس الطرق عليك، وإنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك». فأول ما تحتاجه دليل داخلي نظيف قبل أي شيخ.»

وصية العابد

اطلب الصحبة الصادقة، لكن ضع الكتاب والسنة ميزاناً فوق كل شيخ، ولا تسلّم قلبك لمن لا تعرف علمه وعمله وخلقه.

06

المقام السادس

صلاة لا يُسمع فيها إلا القلب

أخذه عم سالم قبل الفجر إلى المسجد وهو ما يزال شبه مظلم، وأضاءت المصابيح النحاسية واحداً بعد واحد. بدأ المصلون يتوافدون بخطى لا تُسمع: صياد يحمل رائحة البحر في ثيابه، وعامل نظافة يمسح عن يديه الماء، وفتى نحيل بعينين نصف نائمتين.

صلّى الإمام بصوت خافت، وكانت السجادة تحت قدمي هاشم ناعمة من كثرة السجود عليها. لأول مرة لاحظ أن الأعمدة الرخامية تعكس ضوء المصابيح كأنها ماء ساكن.

الدرس السادس: الخشوع

بعد الصلاة قال عم سالم: «قال الله تعالى: «قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون» (المؤمنون 1 و2). وفي حديث جبريل الطويل الذي رواه مسلم سأل جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن **الإحسان**، فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». وهذا أصل كل ما يتكلم فيه أهل التزكية.»

وأضاف: «وقال ابن عطاء الله: «الأعمال صور قائمة، وأرواحها وجود سرّ الإخلاص فيها». وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» (رواه مسلم). فالصلاة جسد وروح: الجسد حركاتها، والروح حضورك فيها.»

ثم أعطى هاشم أربع خطوات للصلاة:

1. **قبل أن تكبّر:** توقف ثلاث ثوانٍ، واسأل: بين يدي من أقف؟
2. **اعرف معنى ما تقول:** اقرأ معنى الفاتحة بالعربية الفصيحة مرة في الأسبوع.
3. **بطّئ:** اجعل ركوعك وسجودك أطول بقليل مما اعتدت.
4. **حين يشرد قلبك فلا تيأس:** أعده بلطف، كما تعيد طفلاً شارداً إلى يدك.

قال هاشم: «ولكن قلبي يشرد في كل ركعة.»

ابتسم عم سالم: «وأنا بعد أربعين سنة يشرد قلبي. لكن الفرق أنني صرت أعيده سريعاً. الخشوع ليس أن لا تشرد، بل أن **تعود**.»

وصية العابد

الخشوع ليس ألا يشرد القلب، بل أن تعيده كلما شرد. قِف بين يدي الله كأنك تراه، ولا تيأس من شرودك.



ميزان الجزء الثاني

في الذكر والصحبة والخشوع

للطريق في هذا الجزء ثلاثة أركان، ولكل ركن خطر يضاده. **الركن الأول: الذكر**، وخطره **العادة**: أن يصير الذكر حركة لسان بلا حضور، فيُفقد لبّه. **الركن الثاني: الصحبة**، وخطره **التقليد**: أن يسلّم السالك عقله لغيره، فيفقد ميزانه. **الركن الثالث: الخشوع**، وخطره **الزهو**: أن يظن الخاشع أنه صار خاشعاً، فيفسد ما ظن أنه صلح.

وقد جاء الميزان عند عم سالم في ثلاثة أقوال. فالذكر عنده **قليل ثابت حاضر**، لا كثير متقطع غافل. والصحبة عنده **مشروطة بالكتاب والسنة**، فلا يعلو شيخ على النص. والخشوع عنده **عودة**، لا كمال. وهذه الأقوال الثلاثة تنتهي إلى حقيقة واحدة: أن **الدين لا يُلقى جاهزاً في القلب، بل يُبنى فيه بنياناً بطيئاً.**

وفي مسألة الطرق ظهرت الأمانة العلمية: فإن العاقل لا يحكم على جماعة كبيرة من الناس، عبر قرون وبلدان، بكلمة واحدة. فإن في المنتسبين إلى كل مدرسة صادقاً ومبتدعاً ومخلصاً ومدّعياً. والعدل أن تزن كل إنسان بما يقول ويفعل، لا بما ينتسب إليه.

وخلاصة هذا الجزء: **الطريق ثلاث: ذكر حاضر، وصحبة منضبطة، وخشوع عائد. ومن اختلّت له واحدة اضطرب سيره.**

الجزء الثالث

٣ الأثر

الغروب في ميناء الصيد. الشمس تنزل وراء الأفق بلون النحاس المصهور، والبحر يلتقط لونها قطعة قطعة، والسماء تتبدل من البرتقالي إلى الرمادي الداكن. الصيادون يعودون بقواربهم المثقلة، ورائحة السمك الطازج تعلو من الصناديق المرصوصة على الرصيف، وأصوات المساومة تتداخل مع صراخ النوارس.

على حافة المرسى امرأة عجوز تقف بجوار سلة فارغة، تنتظر بقايا الصيد لتبيعها. وبجوارها صبي ينظّف السمك بسكين صدئة، يده تتحرك بسرعة معتادة، ودمه الصغير يلطخ كفه.

وفي طرف المرسى، يقف رجل نحيل بجلباب أبيض، يوزّع رغيفاً من كيس على من حوله، ولا ينظر في وجوههم كي لا يحرجهم.

> **في هذا الجزء يتعلم هاشم أن للطريق ثمرة تظهر في الناس لا في الخلوة: زهد يحرر القلب من التعلق، ورضا يسند الروح تحت الألم، وخدمة تحوّل التزكية إلى نفع.**

07

المقام السابع

اليد الفارغة

قال هاشم لعم سالم وهما يجلسان في بيته البسيط المطل على ورشة القوارب: «لماذا بيتك هكذا؟ أنت لا تملك شيئاً تقريباً.»

كانت الغرفة صغيرة، فيها حصيرة وفراش مطوي وطاولة خشبية عليها كوب وإبريق وكتاب أخضر باهت. على الجدار صورة قديمة لمركب، وفي الزاوية شبكة صيد معلقة كأنها ذكرى.

الدرس السابع: الزهد

قال عم سالم: «ما أفقرني. أنا لا أملك شيئاً، لكن لا أخاف أن أفقد شيئاً. وهذا هو الزهد: ليس ألا تملك، بل ألا يملكك ما تملك. وقد قال الله تعالى: «لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم» (الحديد 23). ولم يكن الأنبياء فقراء كلهم، فسليمان عليه السلام كان ملكاً، لكن قلبه لم يتعلق بالملك.»

وأضاف: «وتعلّمت من ابن عطاء الله حكمة قال فيها: «ادفن وجودك في أرض الخمول، فما نبت مما لم يُدفن لا يتم نتاجه». أي: أن البذرة التي لا تُدفن لا تنبت. فمن أراد ثمرة في دينه فليبتعد عن حب الظهور والتصنع. وهذا عصرك يا هاشم: كل شيء يطلب منك أن تظهر وتُعجب وتُتابَع.»

ثم أعطاه ثلاث تمارين:

1. **صيام الشاشة:** ساعة كاملة كل يوم بلا هاتف، وأسبوعاً بلا تصفح قبل النوم.
2. **صدقة خفية:** تصدق بشيء دون أن يعلم أحد، حتى زوجتك أو أخوك.
3. **حذف حسابين:** أغلق حساباً أو اثنين لا تنفعك فيهما إلا المقارنة.

قال هاشم: «صعب.»

ابتسم عم سالم: «أعلم. ولهذا سمّاه العلماء **مجاهدة**.»

وصية العابد

الزهد ألا يملكك ما تملك. ادفن ظهورك قليلاً، وتصدّق خفية، وحرّر وقتك من الشاشة.

المقام الثامن

08 البحر لا يعتذر

جاءه الخبر في منتصف النهار، والمكتب يعجّ بالمكالمات: أمه، التي لم يشكُ منها شيئاً قط، نُقلت إلى المستشفى إثر ألم مفاجئ، والأطباء يريدون فحوصاً وانتظاراً. ترك هاشم عمله وركض، والمصعد يسقط به ببطء لا يطاق، والشارع يتعثر تحت قدميه.

في ممر المستشفى الأبيض الطويل، جلس على كرسي بلاستيكي، وساعة الجدار تدق بإصرار، ورائحة المطهر تحتل حلقه. ثم رأى عم سالم قادماً بخطواته الهادئة، يحمل في يده كيس تمر.

الدرس الثامن: الصبر والرضا

جلس عم سالم إلى جواره وقال: «اشرب ماء. ثم اسمع.»

وبعد صمت قال: «أنا فقدتُ ابني الأكبر في البحر، وكان في الخامسة والعشرين. خرج في رحلة صيد ولم يعد. لم أفهم لماذا. لسنين قلت: لماذا؟ ثم تعلمت أن أسأل: **ماذا الآن؟**»

وتلا قول الله تعالى: «ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون» (البقرة 155 و156). وقال: «وقال النبي صلى الله عليه

وسلم: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له» (رواه مسلم).»

ثم فرّق بين أمرين: «**الرضا** ليس **الاستسلام**. الرضا أن يطمئن قلبك بقضاء الله، ومع ذلك تأخذ بالأسباب: تسأل الأطباء، وتطلب الدواء، وتكثر الدعاء. والنبي صلى الله عليه وسلم علّمنا أن نأخذ بالأسباب ونتوكل. فلا تترك الطبيب بحجة التسليم.»

وأضاف: «وإن ثقل عليك الحزن حتى لم تعد تنام ولا تأكل، فلا تخجل أن تطلب عوناً من أهلك ومن طبيب نفسي. الدين لا يمنع هذا.»

بكى هاشم لأول مرة منذ سنين. ولم يقل عم سالم شيئاً. وضع يده على كتفه فقط، وجلسا معاً في الممر الأبيض حتى خرج الطبيب وقال: «الحمد لله، الأمر أهون مما ظننا.»

وصية العابد

الرضا طمأنينة القلب مع أخذ الأسباب. اصبر، واسأل الأطباء، وادعُ، ولا تحمل الحزن وحدك.

المقام التاسع

09 آخر الدفتر

مرّت الشهور، وبقي هاشم يأتي إلى المسجد كل فجر. لم يصر وليّاً ولا عابداً بالمعنى الذي كان يتخيله. لكنه صار ينام، ويحافظ على وردٍ قليل، ويكتب دفتره، وبدأ يشعر لأول مرة أن ثمة مكاناً في صدره لم يكن موجوداً.

وفي صباح خريفي، جاء عم سالم إليه في المرسى، ومعه كيس تمر.

الدرس التاسع: النفع والإرث

قال: «يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» (رواه أبو داود والترمذي). وروى الطبراني حديثاً ذكره بعض أهل الحديث وحسّنوه: «أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس». فتزكية النفس لا تكتمل بالخلوة. من اعتزل الناس وأحسن عبادته ولم ينفع أحداً فقد أخذ نصف الطريق.»

ثم قال: «سأتوقف عن الحضور إلى المسجد يا هاشم. عمري لم يعد يسمح، وأولادي يريدونني قرب بيتهم في أبي قير. لكن بابي مفتوح لك كل جمعة.»

شعر هاشم أن الأرض مالت. قال: «لا يا عم سالم. أنت لم تعلّمني كل شيء.»

ابتسم عم سالم: «علّمتك ما أعرف. والباقي ستتعلمه أنت. وكل ما فعلته معك فعله بي شخص قبلي. هذه سلسلة صغيرة: كلّ من أخذ يعطي. وهذا قريب مما سمّاه الصوفية **الخرقة**: أن يحمل المرء ما تلقّاه ويسلّمه.»

ثم أمسك بيده: «والآن، وعدٌ واحد: في صباح ما، سترى شاباً يقف في آخر الصف، مضيّعاً. اجلس إلى جواره بعد الصلاة. وقل له ما قلته لك.»

ومشى عم سالم في الزقاق الضيق نحو الشاطئ، خفيف الخطى بجلبابه الأبيض الباهت، ولم يلتفت إليه أحد.



ميزان الجزء الثالث

في الغنى الأصيل

يظن أكثر الناس أن الغنى أن تمتلئ اليد، وأن الفقر أن تفرغ. وقد رد النبي صلى الله عليه وسلم هذا الوهم بقوله: «ليس الغنى عن كثرة العَرَض، ولكن الغنى غنى النفس» (متفق عليه). فالغنى حال القلب، لا حجم الخزانة.

وإذا نظرنا إلى هذا الجزء الأخير وجدنا فيه ثلاث ثمرات، ولكل ثمرة تحرير. **الزهد** يحرر القلب من التعلق بما يملك. **الرضا** يحرره من الاعتراض على ما لا يملك. **النفع** يحرره من نفسه، لأن من يخدم غيره يخرج من سجن «أنا». وهذه الثمرات الثلاث هي الوجه الخارجي لما بدأ في الداخل: اليقظة تفتح العين، والطريق يبني الأدوات، والأثر يظهر الثمرة.

ولكل ثمرة آفة تقف بجوارها كظلها. فآفة الزهد **الرياء به**، أن يتفاخر المرء بقلة ما يملك. وآفة الرضا **السلبية**، أن يسمي التقصير تسليماً. وآفة النفع **المنّ**، أن يذكّر من أحسن إليه بإحسانه. ودواء الأولى **الإخفاء**، ودواء الثانية **الأخذ بالأسباب**، ودواء الثالثة **الإخلاص**.

والعابد الذي رأيناه في هذه الصفحات ليس صورة مثالية لا تُنال. هو رجل بسيط يخطئ ويتعب ويفقد ولده، ثم يتعلم أن يسأل: **ماذا الآن؟** وهذه هي الحكمة كلها: أن يظل الإنسان في حركة صغيرة نحو الأحسن، لا يقف عند خطئه، ولا يتكبر بصوابه.

وخلاصة هذا الجزء في سطر: **من أيقظ قلبه، وحاسب نفسه، وذكر ربه، وصحب الصادقين، وزهد وصبر ونفع، فقد ملك أعظم ما يُملك.**

استراحة بين الطريقين: المقام والحال

يا أخي، مررنا حتى الآن بتسعة مقامات: يقظة، ومحاسبة، وتوبة، وذكر، وصحبة، وخشوع، وزهد، ورضا، ونفع. وقبل أن ندخل الأجزاء الثلاثة الباقية، وقفة قصيرة عند تفريق قديم ذكره **القشيري** في *الرسالة*: أن **المقام** ما يتحقق به العبد بجهده وصبره، كالتوبة والصبر والرضا، وأن **الحال** ما يرد على القلب هبةً من غير تكلّف، كالأنس والشوق. فالمقام يُجاهَد فيه، والحال يُشكر عليه ولا يُدّعى.

وما سيأتي أعمق، لا لأن ألفاظه أصعب، بل لأنه يعمل في الباطن حيث لا يراك أحد. فإن سمعت إنساناً يتحدث عن أحواله العالية بلا حياء، فاحذر، فإن أصدق أهل الباطن أخفاهم.

وكما في الأجزاء الأولى: لست مفتياً ولا شيخاً، فإن احتجت حكماً فاسأل أهل العلم، وإن ثقل عليك همّك أو اضطرب نومك وطعامك أسابيع فاسأل طبيباً أو مختصاً نفسياً إلى جانب ما تقرأ.

الجزء الرابع

٤ القلب الحاضر

الفجر على خليج أبي قير. الماء رمادي ثقيل يتمدد حتى حافة السماء، والضباب يلتف حول القوارب المربوطة كأنه يحرسها. على الشاطئ شباك منشورة على أوتاد خشبية، تقطر بقايا ماء، ورائحة الطحالب والملح والسمك المجفف تعلو على كل شيء. وفي ركن بعيد فرن طيني يفتح بابه بدخان أبيض، وامرأة تلصق على جداره رغيفاً بحركة لا تخطئها منذ ثلاثين سنة.

بين البيوت المتلاصقة، بيت صغير مطلي بالجير الأزرق، نافذته مفتوحة على البحر، وفي النافذة سراج يرتعش. في الداخل رجل ينهي صلاته ببطء، ثم يجلس على حصيرته ويضم يديه إلى صدره ويسكت.

لا يتحرك. لا يهمس. ومن يمر بالنافذة يظن أنه نائم. لكنه في الحقيقة **أنشط** رجل في الحي: قلبه يعمل.

> **في هذا الجزء يتعلم هاشم أن أقرب طريق إلى الله ليس في الحركات الظاهرة وحدها، بل في حضور القلب: أن يعلم أنه مرئي، وأن يصفّي نيته، وأن يصدق في ما لا يراه أحد.**

المقام العاشر

10

العين التي لا تنام

صار هاشم يزور عم سالم كل جمعة في بيته الجديد عند أبي قير، إذ نقله أولاده إلى هناك لشدة تعب ركبتيه. وكان يصل بعد الفجر، يحمل كيساً من الخبز الساخن، فيجد الرجل جالساً أمام النافذة، وعيناه على الماء، وكوب الشاي بجواره قد برد.

قال هاشم: «كنت أظن أنني بعد أشهر من الورد والدفتر سأحس بشيء أكبر. لكنني أكتشف أنني ما زلت أتصرف أمام الناس بطريقة وأمام نفسي بطريقة.»

ابتسم عم سالم: «هذه هي المسألة يا ولدي. ما الفرق بين ما تفعله وأنت وحدك وما تفعله وأنت مرئي؟»

الدرس الأول: المراقبة

قال عم سالم: «يقول الله تعالى: «ألم يعلم بأن الله يرى» (العلق 14)، ويقول: «ونحن أقرب إليه من حبل الوريد» (ق 16)، ويقول: «وهو معكم أينما كنتم» (الحديد 4). وهذا أصل ما سمّاه أهل السلوك **المراقبة**: أن يعلم العبد

أن الله مطلع عليه في كل حال، فيستحي ويحسن. وقد عرّفها القشيري في *الرسالة* بهذا المعنى تقريباً، وتحدث عنها الحارث المحاسبي في *الرعاية*، وبسط القول فيها ابن القيم في *مدارج السالكين*.»

ثم قال: «وهي ليست خوفاً مرضياً، بل **انتباه محب**. فمن رأى أن أباه يراه لا يهرب منه، بل يحسن أمامه. لكن البشر ينسون. فاجعل لنفسك **ثلاث وقفات** في اليوم:»

1. **قبل أن تتكلم:** ثانية واحدة. هل هذا الكلام مما يرضي من يراني؟
2. **قبل أن تعمل:** نظرة قصيرة إلى النية. لماذا أفعل هذا؟
3. **قبل أن تنام:** مراجعة سريعة لما كنت أخفيه عن الناس اليوم.

قال هاشم: «وإن نسيت؟»

«تعود. كما قلنا في الخشوع: ليس المطلوب ألا تنسى، بل أن تتذكر سريعاً. ومن جعل لنفسه وقفة واحدة في اليوم ثم أتقنها فهو أفضل ممن جعل عشراً ثم هجرها.»

وصية العابد

اجعل لنفسك ثلاث وقفات: قبل الكلام، وقبل العمل، وقبل النوم. واسأل: هل يرضي هذا من يراني؟

المقام الحادي عشر

11 الذي لا يريد شيئاً

كان عم سالم يعلّم أولاد الحي القرآن بعد العصر في بيته، وقد رآه هاشم يوماً يجلس مع طفل لا يتجاوز السابعة يقرأ ببطء، والرجل لا يصحح خطأه بحدة، بل يعيد الكلمة بصوت هادئ حتى ينطقها الصبي صحيحة. وفي نهاية الجلسة ناوله الصبي فطيرة صغيرة أرسلتها أمه، فابتسم وقال: «بارك الله فيك. أعطها لصاحب الفرن عنّي.»

سأله هاشم بعد انصراف الصبي: «ألا تأكلها؟ لماذا تعطيها لغيرك؟»

الدرس الثاني: الإخلاص

قال عم سالم: «لأن المسألة ليست الفطيرة. الإخلاص أن يكون عملك لله وحده. قال الله تعالى: «وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين» (البينة 5). ومدح الله قوماً قالوا: «إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً» (الإنسان 9).»

ثم قال: «وفي صحيح مسلم حديث مخيف: أن أول من يُقضى فيه يوم القيامة ثلاثة: رجل استُشهد، ورجل تعلّم العلم وقرأ القرآن، ورجل وسّع الله عليه فأنفق ماله، وقد قيل لكل منهم إنه فعل ليقال عنه، وقد قيل. وهذا يعلّمنا أن **العمل الظاهر الصالح** قد يفسده **الباطن**.»

وأضاف: «ويُروى عن **الفضيل بن عياض** قوله: «ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما». أي أن لا تترك الخير خوفاً من كلام الناس، ولا تفعله لتنال إعجابهم.»

ثم أعطاه ثلاثة تمارين:

1. **قبل العمل:** اسأل نفسك: لو لم يعلم أحد بهذا العمل، هل كنت سأفعله؟
2. **عمل خفي أسبوعي:** اجعل لنفسك عملاً صالحاً لا يعلم به أحد.
3. **حين يمدحك أحد:** قل في نفسك: اللهم اجعلني خيراً مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون.

ثم قال بلطف: «ولا تتعذب وتقول: لا أنا مخلص. الإخلاص يُجاهَد فيه طول العمر. ومن جاهد وقع في النية أحياناً فتاب وعاد، فهو في الطريق.»

وصية العابد

اسأل قبل كل عمل: هل أفعله لو لم يعلم به أحد؟ واجعل لك عملاً خفياً أسبوعياً، ولا تتعذب بوسواس الإخلاص.

المقام الثاني عشر

12 الكذبة الصغيرة

حدث في ذلك الأسبوع شيء جعل هاشم يهرب إلى أبي قير مكسور الوجه. كان في اجتماع في الشركة، وسأله مديره عن موعد تسليم شحنة، وكان يعلم أنها ستتأخر. ولكنه قال بسرعة: «ستصل غداً.» ثم هرع بعد الاجتماع يتصل بالميناء يرجو أن تصل في الوقت. لم تصل.

جلس أمام عم سالم يروي ما حدث وصوته يتعثر. وفي الخارج، كان الموج يضرب الصخور بتكرار أعمى.

الدرس الثالث: الصدق

قال عم سالم بهدوء: «قال الله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين» (التوبة 119). وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة. وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يُكتب عند الله صديقاً. وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور...» (متفق عليه). وجعل أبو إسماعيل الأنصاري الصدق من منازل السائرين.»

ثم قال: «ولا أتحدث عن الكذب الكبير الذي يعرفه الناس كلهم. أتحدث عن **الكذبات الصغيرة الثلاث** التي يمارسها الجميع ويسميها مجاملة:»

1. **كذبة التجمّل:** أن تقول «سأفعل» وأنت لا تنوي أو لا تستطيع.
2. **كذبة الإنقاذ:** أن تقول ما يخرجك من حرج لحظي، كما فعلت في الاجتماع.
3. **كذبة النفس:** أن تقنع نفسك بأن تقصيرك له سبب وجيه.

ثم قال: «وعلاجها ثلاث خطوات: أولاً **الاعتراف السريع**: اذهب إلى مديرك اليوم وقل له: قلت لك بالأمس غداً، والحقيقة أنني لم أكن متأكداً، وهذا موعد أصدق. ثانياً **التصحيح**: اقترح بدائل. ثالثاً **العزم**: في المرة القادمة قل: لا أعلم، سأتحقق وأخبرك.»

في اليوم التالي دخل هاشم على مديره وقال ما قاله له عم سالم. صمت المدير لحظة طويلة، ثم قال: «شكراً. كثيرون كانوا سيختبئون خلف الأعذار. من الآن، إذا قلتَ لي موعداً سأصدقه.»

وعاد هاشم تلك الليلة يعرف أن الصدق ليس عبئاً. إنه أرخص ما يملكه.

وصية العابد

قل «لا أعلم، سأتحقق» بدل أن تَعِد بما لا تملك. وإن زللت فاعترف سريعاً وصحّح، فالصدق يوفر عليك كثيراً.

ميزان الجزء الرابع

في الباطن والظاهر



للإنسان وجه يراه الناس، ووجه لا يراه إلا الله. والعلاقة بين الوجهين هي أخطر ما في السلوك كله، فإن اتسع الفرق بينهما نشأ **النفاق العملي**، وإن ضاق نشأ **الصدق**. وقد قام هذا الجزء على ثلاثة أصول تضيّق هذا الفرق.

الأصل الأول: المراقبة، وهي أن تعلم أن الوجه الباطن مرئي، فلا يعود في الدنيا ما يُسمّى «لا أحد يراني». **الأصل الثاني: الإخلاص**، وهو أن تجعل الوجه الباطن هو الأصل والظاهر تابعاً له، لا العكس. **الأصل الثالث: الصدق**، وهو أن ينطبق الظاهر على الباطن في الكلمة والفعل.

ولاحظ أن هذه الثلاثة مرتبة ترتيباً تربوياً. فمن راقب علم، ومن علم أخلص، ومن أخلص صدق. أما من بدأ بالصدق قبل المراقبة فصدق خوفاً من الناس، فسقط صدقه عند أول موضع لا يراه فيه أحد.

وفي ذلك يظهر الفرق بين **الأخلاق** و**التزيّن بالأخلاق**: الأول يعمل في الظلام، والثاني يعمل أمام الكاميرا.

وخلاصة هذا الجزء: **من علم أنه مرئي أصلح باطنه، ومن أصلح باطنه صلح ظاهره دون تكلّف.**

الجزء الخامس ٥

التسليم

العصر في ميناء الإسكندرية. الغيوم الرمادية تتجمع فوق الحاويات المرصوصة كقطع من اللعب العملاقة، والرافعات الضخمة تدور بذراعها المعدنية في الهواء الثقيل، وتصدر صريراً طويلاً كحزن آلة. رائحة الزيت والحبال المبللة وأسماك فاسدة تمتزج بالريح الباردة الآتية من البحر.

على الرصيف، عمال بأقنعة وخوذ يتحركون ببطء من يعرف أن العاصفة قادمة، وسائق شاحنة يدخن بعصبية ويراقب السماء، وموظف بسترة صفراء يحدق في شاشة صغيرة ويحرك إصبعه عليها كأنه يتحسس قدراً.

وفي زاوية المكتب الزجاجي المطل على كل هذا، مهندس شاب يقف ويداه خلف ظهره، ينظر إلى الأفق ويحسب احتمالات لا نهاية لها: لو تأخرت الباخرة، لو أُغلق الميناء، لو…

في هذا الجزء يتعلم هاشم أن للإنسان حدّاً من الأسباب يملكه، وما وراءه فتسليم. وأن الشكر عمل لا شعور، وأن في الخلوة حياءً يحرس القلب حين يغيب الرقيب.

13

المقام الثالث عشر

اعقلها وتوكل

اتصل المدير بهاشم في الصباح ليخبره بأن العاصفة المنتظرة قد تؤخر الميناء ثلاثة أيام، وأنه يريد قراراً سريعاً: إما أن تُسحب الشحنة الحساسة من الرصيف الآن بتكلفة إضافية كبيرة، أو تُترك على أمل أن تمرّ العاصفة بسلام.

وقف هاشم صامتاً. وقبل أن يجيب قال: «سأرد بعد ساعة.» ثم ركض إلى أبي قير.

الدرس الرابع: التوكل

وجد عم سالم يخيط شبكة بإبرة طويلة، ومن حوله صيادون يتجادلون في الأسماء والأمواج. قال عم سالم دون أن ينظر: «أخبرني بالقصة.»

وبعد أن سمعها، قال: «قال الله تعالى: «ومن يتوكل على الله فهو حسبه» (الطلاق 3). وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً» (رواه الترمذي وابن ماجه). لكن انتبه: الطير **تغدو**، أي تتحرك وتطلب. وفي حديث آخر رواه الترمذي أن رجلاً قال: أُرسل ناقتي وأتوكل؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «اعقلها وتوكل». فالتوكل ليس ترك الأسباب، بل **الأخذ بها مع تعلق القلب بالله**.»

ثم رسم له خمس خطوات لقرار مثل هذا:

1. **اجمع المعلومات:** ماذا تقول نشرة الأرصاد؟ ما سجل الميناء في عواصف مشابهة؟ ما رأي أهل الخبرة؟
2. **قدّر الاحتمالات:** الأفضل والأسوأ والأرجح، كما تعلمت.
3. **استشر:** من يخالفك ومن يوافقك.
4. **استخر الله:** ركعتان ثم دعاء الاستخارة المعروف الثابت في صحيح البخاري.
5. **قرّر ثم سلّم:** واترك ما بعد القرار لله، ولا تُحاكم نفسك بالنتيجة.

قال هاشم: «وإن أخطأت؟»

ابتسم عم سالم: «ستخطئ يا ولدي. التوكل ليس ضماناً بالنجاح، بل طمأنينة بأنك فعلت ما تقدر عليه. ومن فعل ذلك لم يعش في الندم.»

قرر هاشم سحب الشحنة، وكلف الشركة مبلغاً إضافياً. ومرّت العاصفة بعد يومين بأقل مما قيل، وخسر ما خسر. لكنه نام تلك الليلة نوماً هادئاً، لأنه علم أنه لم يقصّر.

وصية العابد

اعقلها وتوكل. اجمع المعلومات، وقدّر الاحتمالات، واستشر، واستخر، ثم قرّر وسلّم، ولا تحاسب نفسك بالنتيجة.

المقام الرابع عشر

14 دفتر الشكر

أعطى عم سالم هاشماً في تلك الجمعة دفتراً صغيراً آخر بغلاف أزرق. قال: «هذا دفتر **الشكر**. اكتب فيه كل ليلة ثلاثة أشياء، لا أقل. لكن بشرط: لا تكرر شيئاً.»

كانا يجلسان على الصخور، والغروب يصبغ الماء بلون وردي مخضرّ، ونوارس تحوم حول قارب يفرّغ حمولته.

الدرس الخامس: الشكر

قال عم سالم: «قال الله تعالى: «لئن شكرتم لأزيدنكم» (إبراهيم 7). وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «من لا يشكر الناس لا يشكر الله» (رواه أبو داود والترمذي). وجعل أهل السلوك الشكر ثلاث درجات: **شكر القلب**، وهو أن تعرف النعمة وتنسبها إلى المنعم. و**شكر اللسان**، وهو أن تحمد وتثني. و**شكر الجوارح**، وهو أن تستعمل النعمة في ما يرضي الله.»

ثم قال: «وشرط الدفتر ألا تكرر شيئاً يجعلك تفتش في حياتك عما لم تنتبه له: كوب ماء بارد، ورجل ابتسم لك في الطريق، وصوتك الذي تسمع به القرآن. وفي أسبوع واحد ستكتشف أنك كنت غنياً وأنت لا تعلم.»

وأعطاه ثلاثة أعمال للشكر العملي:

1. **رسالة شكر:** لشخص أحسن إليك ولم تشكره.
2. **شكر بالفعل:** اجعل جزءاً من نعمتك في يد غيرك، ولو قليلاً.
3. **شكر في الشدة:** حين تضيق، اكتب ثلاثة أشياء ما زالت عندك.

بعد أسبوعين، لاحظ هاشم أن قلبه صار أخف. وفي الليلة الخامسة عشرة لم يجد شيئاً جديداً ليكتبه، فجلس طويلاً ينظر إلى القلم. ثم كتب: **أنني ما زلت قادراً على أن أبحث عن شيء أشكر عليه.**

وصية العابد

اكتب ثلاثة أشياء جديدة كل ليلة تشكر الله عليها. وأرسل رسالة شكر لمن أحسن إليك، فمن لا يشكر الناس لا يشكر الله.

المقام الخامس عشر

15

حياء الخلوة

جاءته لحظة ضعف ذات ليلة وهو وحده في الشقة، والبيت ساكن، والهاتف على الأريكة يضيء كعين صغيرة. فتح الشاشة بإبهامه بلا قرار، وانزلق إلى ما يعرف أنه يؤذي قلبه. ثم أغلقه بسرعة، وجلس يحدق في الجدار وقلبه يخفق خزياً.

في الصباح ذهب إلى أبي قير، ومعه ذلك الثقل الذي لا يعرف كيف يشرحه.

الدرس السادس: الحياء

لم يسأله عم سالم عمّا جرى. قال فقط: «هل تعرف لماذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: «الحياء من الإيمان» (متفق عليه)، وقال: «الحياء لا يأتي إلا بخير» (متفق عليه)؟»

ثم قال: «الحياء من الناس حسن. لكن **حياء الخلوة** أعلى وأصدق. أن تستحيي من الله وأنت وحدك. وقد قال العلماء إن من علامة الإيمان أن يتغير حال المرء في الخلوة إن غاب الرقيب البشري.»

وأضاف بنبرة رفيقة: «ولا تحبط. من ضعف في موضع فلا يعني أن الطريق انتهى. لكن عليك **حماية الباب**:»

1. **قاعدة المسافة:** لا تترك الهاتف في غرفة نومك، ولا تبقَ وحدك معه في الليل.

2. **قاعدة الاستبدال:** حين تشعر بالرغبة، قم فتوضأ أو امش خمس دقائق أو اتصل بصديق.

3. **قاعدة التوبة السريعة:** إن زللت، فركعتان وتوبة في الحال ولا تؤجل.

4. **قاعدة العون:** إن غلبك الأمر وصار يتكرر ويضرّ بحياتك، فاسأل مختصاً نفسياً. وهذا ليس عيباً ولا ضعف إيمان.

قال هاشم بصوت منخفض: «شعرت بأني مرائي. أصلّي أمام الناس وأفعل ذلك في الخفاء.»

قال عم سالم: «المرائي من يريد أن يُرى صالحاً ولا يبالي بما في باطنه. أما أنت فتتألم من ذلك وتأتيني. هذا هو الحياء بعينه. فلا تيأس من نفسك، لكن أصلح.»

وصية العابد

استحِ من الله في الخلوة، واحمِ الباب: ابعد الهاتف ليلاً، واستبدل الفعل، وتب سريعاً، واطلب العون إن احتجت.



ميزان الجزء الخامس

في الأخذ والتسليم

يتنازع القلب في أمور الدنيا قطبان: **الأخذ** و**التسليم**. فمن غلب عليه الأخذ وحده صار ماديّاً قلقاً يرى كل شيء بيده، فإذا أخطأ انهار. ومن غلب عليه التسليم وحده صار متواكلاً يحتج بالقدر عن تقصيره. والحق **جمع** الاثنين: أخذ بالأسباب كأنه لا يتوكل، وتسليم كأنه لا يأخذ.

وفي هذا الجزء ثلاثة ميادين لهذا التوازن. **التوكل** ميدان القرار: تأخذ بالأسباب كلها ثم تسلّم النتيجة. **الشكر** ميدان النعمة: تستعمل ما أعطيت وتنسبه إلى معطيه. **الحياء** ميدان الخلوة: تأخذ بأسباب العفة وتسلّم الأمر إلى من يراك.

ولاحظ كيف يحمي كل واحد منها من آفة تقابله: فالتوكل يحمي من **القلق**، والشكر يحمي من **الحسد**، والحياء يحمي من **الازدواج**. وأخطر الآفات الثلاث الأخيرة، لأنها تعيش في الظلام.

وفي هذا الجزء أيضاً يتبين أن **الطريق ليس خطّاً صاعداً**. فالتلميذ يخطئ ويعود، ثم يخطئ ويعود. والفارق بين السالك وغيره ليس في قلة الخطأ، بل في **سرعة العودة**.

وخلاصة هذا الجزء: **خذ بكل سبب كأنك لا تتوكل، وسلّم كل نتيجة كأنك لم تأخذ بسبب.**

الجزء السادس ٦

المودة في القربى

المغرب في ميدان الحسين. القباب والمآذن تتلألأ بالمصابيح الخضراء، وفوق رؤوس الناس تتدلى فوانيس نحاسية تتأرجح مع الريح كأنها تتهامس. من خان الخليلي القريب تفوح رائحة البخور والعود وماء الورد، وتتداخل معها رائحة الشاي بالنعناع وبخار الذرة المشوي. صوت منشد من مقهى قريب يرتفع بمقطع قديم ثم ينخفض، وخطوات آلاف الأحذية تنقر الأرض الحجرية المبللة بماء الرش.

على أبواب المسجد أحذية مكدّسة في أكياس بلاستيكية، وأطفال يلاحقون الحمام، ونساء بوشاح أبيض يمررن بين الأعمدة بخطوات خافتة، ورجل ضرير يتلو شيئاً بهمس عند العتبة، وصبي يبيع المسابح الخشبية ويرد كل مشترٍ بدعاء قصير. في الداخل نور أصفر هادئ وسجاد أحمر مهترئ من كثرة الأقدام، وفي الركن رجال يصلّون بصمت.

لا شيء في هذا المشهد يشبه الضجيج الذي في الخارج. هنا سكون كثيف، لكنه مليء بشيء لا يُرى: **محبة** تنتقل في الدم منذ قرون، من الأجداد إلى الأحفاد، دون أن يشرحها أحد.

> **في هذا الجزء يتعلم هاشم أن حب آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم جزء من الدين لا ينفصل عن التوحيد، وأن له أدباً يحفظه من الغلو ومن الجفاء، وأن المساجد التي تحمل أسماءهم هي مساجد لله، يُصلّى فيها لله وحده، ويُحَب أصحابها بالدعاء والصلاة عليهم.**

المقام السادس عشر

16 بين يدي الحسين

في يوم من أيام الربيع، قال عم سالم لهاشم وهو يتكئ على النافذة المطلة على البحر: «لم أزر الحسين منذ عشرين سنة. قلبي يشتاق، وركبتاي لا تسمحان.»

لم يقل هاشم شيئاً. وفي الجمعة التالية، كان قد استعار من جاره مقعداً متحركاً، وحجز مقعدين في قطار الصباح إلى القاهرة.

سارا بين الزحام عند ميدان الحسين، وهاشم يدفع المقعد بحذر على الحجارة، وعم سالم ينظر إلى المآذن بعينين تلمعان، ويتمتم بما لا يسمع. توقفا أمام باب المسجد، وبقي عم سالم صامتاً طويلاً. ثم قال بصوت خافت: «اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله.»

الدرس السادس عشر: من هم أهل البيت؟

جلسا في الصحن بعد الصلاة. وكانت المصابيح تلقي ظلالاً على الأرضية الرخامية، والحمام يتحرك بين الأعمدة.

قال عم سالم: «قال الله تعالى: «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً» (الأحزاب 33). وروى مسلم في حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم أدخل تحت كساء الحسن والحسين

وفاطمة وعلياً، ثم تلا هذه الآية. وفي رواية الترمذي من حديث أم سلمة أنه قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً». ويدخل في أهل البيت عند أهل العلم أزواجه صلى الله عليه وسلم وذريته وآله من بني هاشم، وقد اختلفوا في بعض تفصيل ذلك.»

ثم قال: «وفي صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب بين مكة والمدينة فقال: «أذكّركم الله في أهل بيتي» ثلاث مرات. وجاء في صحيح البخاري عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قوله: «ارقبوا محمداً صلى الله عليه وسلم في أهل بيته»، وقوله: «والذي نفسي بيده لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إليّ أن أصل من قرابتي». وروى الترمذي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال عن الحسن والحسين: «سيدا شباب أهل الجنة».»

وأضاف: «وفي قوله تعالى: «قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى» (الشورى 23) اختلف المفسرون. روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه فسّرها بصلة القرابة التي بين النبي صلى الله عليه وسلم وقريش. وفسّرها آخرون بمودة أهل بيته. وكل ذلك يدل على مكانة القربى.»

ثم قال: «وفي صلاتنا كل يوم نقول في التشهد: «اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد». فمحبة آل البيت ليست زيادة على الدين، بل هي مذكورة في صلاة كل مسلم.»

وأعطاه ثلاثة أعمال تعبّر عن هذه المحبة:

1. **الصلاة الإبراهيمية بحضور قلب:** حين تقولها في التشهد، تذكّر من تصلي عليهم.

2. **صلة الرحم:** فقد جعل أبو بكر صلة قرابة الرسول أحب إليه من صلة قرابته، وهذا يعلّمك عظم الرحم.

3. **الدعاء لهم والتأدب في ذكرهم:** وترك كل كلمة تسيء إليهم، أو إلى أحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

وصية العابد

أحبّ آل بيت نبيك محبة تعلن في صلاتك ودعائك وصلة رحمك، وأدّ حقهم بالأدب، ولا تفصل حبهم عن توحيد الله.

المقام السابع عشر

17 أدب الزيارة

في اليوم التالي، مرّا في القاهرة على مساجد يحمل أهلها أسماء من آل البيت. كان عم سالم يرويها لهاشم بأسلوب من يعرفها منذ زمن:

«يذكر أهل مصر من أماكن آل البيت: **مشهد الحسين** رضي الله عنه، ويروي كثير من المصريين أن رأسه الشريف نُقل من عسقلان إلى القاهرة في العصر الفاطمي. وهذا مما اختلف فيه المؤرخون، فبعضهم يقول الرأس في كربلاء، وبعضهم في دمشق، وبعضهم في القاهرة. لكن المصريين أحبوا هذا المكان وعمّروه بالذكر. و**مسجد السيدة زينب** رضي الله عنها بنت علي وفاطمة، في الحي الذي يحمل اسمها، وللمصريين فيها محبة ظاهرة، وتختلف الروايات في موضع قبرها. و**مسجد السيدة نفيسة** بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي، وهي من حفيدات الإمام الحسن، عاشت في مصر وتوفيت فيها سنة 208 هـ في ما يذكره المؤرخون، وكان الإمام الشافعي رحمه الله يزورها ويعتقد صلاحها، كما تذكر الروايات. وفي القاهرة مشاهد أخرى تُنسب إلى السيدة سكينة والسيدة رقية وغيرهما، وتختلف الأقوال التاريخية في نسبة بعضها.»

ثم قال: «واعلم أن في نسبة بعض هذه المشاهد بحثاً تاريخياً لا يضر المحب. فمحبتنا لا تتوقف على تحقيق موضع قبر، بل على ما ثبت من فضلهم.»

الدرس السابع عشر: كيف تزور؟

وقفا في الظل على مقربة من ضريح السيدة زينب، والناس يتدفقون بين الباب والأعمدة. قال عم سالم: «زيارة القبور مشروعة. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «فزوروا القبور فإنها تذكّر الآخرة» (رواه مسلم). وعلّم أصحابه أن يقولوا إذا زاروها: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية» (رواه مسلم). فمقصود الزيارة **الدعاء للميت وتذكّر الموت**.»

ثم قال بجدية: «وهنا يقع الخطأ عند بعض الناس، والعلماء يحذرون منه. لا تجعل الزيارة سبيلاً إلى **عبادة غير الله**. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» (متفق عليه)، ومعناه تحذير من الغلو في القبور. فأصل العبادة لله وحده: لا سجود لقبر، ولا ذبح عنده، ولا طواف به كطواف الكعبة، ولا دعاء الميت من دون الله كأنه يملك لك ضراً أو نفعاً.»

وأضاف: «وأما **التوسل بالصالحين**، أي أن يقول الرجل: اللهم بجاه فلان أسألك، فقد اختلف فيه العلماء: منهم من أجازه بشروط، ومنهم من منعه ورأى أنه ذريعة. وهذا خلاف معتبر لا يُحسم بالصراخ. والمتفق عليه أن **الدعاء لله وحده**، وأن الأحوط أن تسأل الله مباشرة بأسمائه الحسنى وبأعمالك الصالحة.»

وقدّم له أدباً من خمس نقاط:

1. **ادخل لله:** انوِ الصلاة لله في هذا المسجد، والدعاء لصاحبه، والصلاة على النبي وآله.
2. **قل سلام الزيارة المأثور** ثم ادعُ لهم وللمسلمين وللموتى.
3. **اسأل الله وحده** حاجتك.
4. **لا تفعل ما يُظن فيه الغلو:** سجود وطواف وتمسّح مبالغ فيه وذبح.
5. **لا تنكر على الناس بغلظة:** فمن رأيته يبالغ فانصحه برفق، ولا تهنه أمام الناس.

وقال في النهاية: «وأما شدّ الرحال لزيارتهم، فيقول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تُشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى» (متفق عليه). وقد فهمه بعضهم على منع السفر لقصد القبور، وفهمه آخرون على أنه في السفر لقصد المساجد من حيث الفضل، ويجيزون الزيارة. ولست أفتيك. اسأل أهل العلم الذين تثق بهم في بلدك.»

وصية العابد

زُر لتدعو وتتذكر الموت، لا لتعبد أو تغلو. اسأل الله وحده، وصلِّ على النبي وآله، وانصح برفق من رأيته يبالغ.

18

المقام الثامن عشر

حب بلا غلو

في صحن المسجد، رفع رجل في الثلاثين صوته فجأة على آخر أكبر منه سناً: «هذا شرك! أنتم تدعون الأموات!»

التفت الناس. اشتد الصوت، وجاء ثالث يصيح: «وأنت تكره آل البيت!» واحمرّت الوجوه، وتقدم شاب يمسك أطراف ثوبه كأنه سيتدخل بيده.

وكان عم سالم جالساً على مقعده المتحرك، فنظر إلى هاشم وقال بصوت منخفض: «ادفعني إليهم.»

الدرس الثامن عشر: بين الغلو والجفاء

وصل عم سالم إلى الدائرة، ورفع يده بهدوء، فسكت الجميع لهيبة شيبته. قال بصوت خافت: «يا أولاد، أنا رجل جاهل، لكن اسمحوا لي بسؤالين. الأول: هل تحبون أن يصلى على النبي وآله؟»

قالوا: «نعم.»

«والثاني: هل تعبدون إلا الله؟»

قالوا: «لا.»

قال: «إذن أنتم متفقون على أصل الأمر. أحدكم يخاف أن يقع الناس في الغلو، وهذا خوف صالح. وأحدكم يخاف أن يُجفى أهل البيت، وهذا خوف صالح. والخلاف في بعض الأفعال أمر العلماء، لا الصراخ في المسجد.»

ثم التفت إلى هاشم وقال بصوت يسمعه الجميع: «ذكر أهل العلم أن أهل السنة وسط في هذا الباب: يحبون آل البيت جميعاً ويعرفون لهم فضلهم، ولا يعبدونهم ولا يغلون فيهم، ويحبون أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كذلك، ولا يسبّون أحداً منهم. وتُنسب إلى الإمام الشافعي رحمه الله أبيات في حب آل البيت يقول فيها ما معناه إن حبهم فرض أنزله الله في القرآن، وإن من لم يصلّ عليهم لا صلاة له. وقد اختلف العلماء في فهم هذه العبارة، لكن مقصدها تعظيم المحبة.»

سكت الرجال. ثم قال الأكبر سناً: «والله لم أقصد الإساءة.» وقال الشاب: «ولا أنا.» وتصافحا، وقد احمرّت عيونهما.

وفي طريق العودة، قال عم سالم: «هل رأيت؟ الحب بلا علم قد يغلو، والعلم بلا حب قد يجفو. وأحسن منهما حب بعلم وعلم بحب. وإن رأيت خلافاً بين مسلمين فاسأل نفسك: ما الذي يتفقان عليه؟ فمن بدأ بما يتفق عليه الناس سهل عليه الحديث فيما يختلفون فيه.»

وفي ساعات العودة الطويلة في القطار، نام عم سالم على كتف هاشم.

وسعل سعالاً خفيفاً في نومه، فأحسّ هاشم برعدة في قلبه، ولم يعرف لماذا.

وصية العابد

أحبّ آل البيت ولا تغلُ، وأحبّ الصحابة كلهم ولا تسبّ أحداً، وابدأ دائماً بما يتفق عليه المسلمون قبل ما يختلفون فيه، وانصح برفق.



ميزان الجزء السادس

في المودة والاعتدال

للمحبة في الإسلام ميزان، فهي ليست شعوراً حراً يندفع حيث شاء، بل عاطفة تُضبط بالعلم. ولذلك جاء في هذا الجزء ثلاث مراتب لمحبة آل البيت. **المرتبة الأولى: محبة القلب**، وأصلها ما ثبت من فضلهم في القرآن والسنة، فهي تُبنى على النص لا على الهوى. **المرتبة الثانية: صلاة اللسان**، وهي أن يتحول القلب إلى كلمة: الصلاة عليهم، والدعاء لهم، والتأدب في ذكرهم. **المرتبة الثالثة: اقتداء العمل**، وهي أن يتحول الكلام إلى سلوك: صلة الرحم، والصدق، والرحمة بالخلق، فإن أعظم ما يحبه آل البيت في محبيهم أن يشبهوهم.

وفي كل مرتبة آفة على الجانبين. فآفة المحبة **الغلو**، وهو رفع البشر إلى ما ليس لهم. وآفة التحرز منها **الجفاء**، وهو أن يخاف المرء من الغلو فيترك الحق الواجب. ومن عرف الآفتين سلك الوسط: **محبة تتأدب، وأدب لا يتحول إلى قسوة**.

ولاحظ أن الخلاف المذكور في هذا الجزء، في التوسل وشدّ الرحال وبناء المشاهد، ليس خلاف أصول بين مسلم وغيره، بل هو خلاف فروع بين علماء يتفقون على التوحيد والمحبة. والعاقل لا يجعل الفرع سيفاً على من يشاركه الأصل.

وخلاصة هذا الجزء: **من أحب آل البيت بعلم عرف حقهم دون غلو، ومن عرف حدّ المحبة أحبّ أكثر.**

الجزء السابع ٧

القرب

ليلة في بيت عم سالم عند أبي قير. الظلام كثيف إلا من سراج صغير يرتعش على الطاولة الخشبية. من خلف النافذة يأتي هدير البحر منتظماً كتنفس كائن كبير نائم، ورائحة الملح والحبال المبللة تتسلل من الشقوق، وفوق السطح نجوم لا تُحصى تلمع بين الغيوم المتقطعة.

على الحصير، رجل عجوز ممدّد، ملتحف بغطاء رقيق، وبجانبه شاب يمسك يده بين كفيه. لا يتكلمان. ثمة سكون لا تقطعه إلا طقطقة الخشب الصغيرة وهمس الموج.

وعلى الطاولة دفتران: واحد أخضر قديم بخط مرتجف، وآخر أزرق طري. وكأن كل واحد منهما ينتظر دوره ليُكمل ما بدأه الآخر.

في هذا الجزء يتعلم هاشم أن الاتباع هو طريق المحبة الصادق، ثم يتعلم أعمق ما في الطريق وأبسطه: المحبة التي تجعل العبادة أنساً لا واجباً، والافتقار الذي يعرف به العبد أن كل ما عنده عارية، ثم ختام الطريق الذي هو بداية لغيره.

المقام التاسع عشر

19

كيف تكون محمدي المنهج والسلوك

وجد هاشم عم سالم ذات جمعة جالساً على عتبة بيته عند أبي قير، وفي حجره قميص قديم، وبين أصابعه إبرة غليظة وخيط أبيض، يحاول إدخال الخيط في ثقبها بعينين تتضاحكان مع الضوء. على الأرض كوب شاي، وإلى جانبه زر مخلوع. وفي الخارج كانت الأطفال تجري خلف كرة من خرق، والبحر يهزّ المراكب هزاً بطيئاً.

قال هاشم وهو يقترب: «أعطني أخيطه لك.»

ابتسم عم سالم: «لا. أنا أخيط ثوبي. أما تعرف أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخصف نعله ويخيط ثوبه ويعمل في بيته؟ (رواه أحمد وصحّحه بعض أهل الحديث). وسألت عائشة رضي الله عنها: ما كان يصنع في بيته؟ فقالت: «كان يكون في مهنة أهله» أي في خدمتهم، «فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة» (رواه البخاري).»

سكت هاشم لحظة، ثم قال: «أخي الصغير سخر مني الأسبوع الماضي. قال لي: صرتَ شيخاً وتركتَ الناس. وأنا لا أعرف كيف أرد.»

الدرس التاسع عشر: الاتباع منهج وسلوك

وضع عم سالم القميص جانباً، وقال: «اجلس. المسألة أبسط وأكبر مما تظن.»

ثم قال: «قال الله تعالى: «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر» (الأحزاب 21)، وقال: «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله» (آل عمران 31). وهذه الآية، كما تعلمنا، ميزان المحبة. فمن أراد أن يكون محمدياً فعليه أن يتبعه في **المنهج** وفي **السلوك**، لا في الشكل وحده. وقال الله تعالى عنه: «وإنك لعلى خلق عظيم» (القلم 4)، وسُئلت عائشة عن خلقه فقالت: «كان خلقه القرآن» (رواه مسلم).»

أولاً: المنهج، أي كيف تفهم الدين وتمارسه

وأعطاه ثلاثة أعمدة:

1. **اتباع بلا ابتداع:** قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» (متفق عليه). فالأصل أن تتعلم الأحكام من القرآن والسنة بفهم أهل العلم، لا أن تخترع عبادات من عندك. وقال الله تعالى: «وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا» (الحشر 7).

2. **وسطية بلا غلو ولا تفريط:** روى البخاري أن ثلاثة نفر جاؤوا يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فكأنهم تقالّوها. قال أحدهم: أنا أصلي الليل أبداً، وقال الآخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال

الثالث: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاءهم النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني.» فالاتباع ليس التشدد، بل **الاعتدال**. وقال: «إن الدين يسر» (رواه البخاري)، وقال: «إن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل» (متفق عليه).

3. **علم قبل عمل:** قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» (متفق عليه). فاسأل واقرأ وتعلم من أهل العلم الموثوقين، ولا تقتصر على مقاطع قصيرة.

ثانياً: السلوك، أي كيف تعيش كل يوم

وأكمل عم سالم: «والمنهج بلا سلوك جدار بلا سقف. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إنما بُعثتُ لأتمم صالح الأخلاق» (رواه أحمد وصحّحه بعض أهل الحديث، وجاء بلفظ «مكارم الأخلاق»). وقال: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً» (رواه أبو داود والترمذي).»

ثم عدّد له سبع خصال يومية يستطيع أن يبدأ بها:

1. **الرفق:** «ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا نُزع من شيء إلا شانه» (رواه مسلم).

2. **ضبط الغضب:** «ليس الشديد بالصُّرَعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» (متفق عليه).

3. **الخدمة في البيت:** «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي» (رواه الترمذي وابن ماجه). فاغسل كوباً، وساعد أمك، واسأل زوجتك أو أخاك: ماذا أفعل لك؟

4. **التيسير:** قالت عائشة: «ما خُيّر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً» (متفق عليه). لا تُعسّر على نفسك ولا على غيرك.

5. **الابتسامة:** «تبسّمك في وجه أخيك لك صدقة» (رواه الترمذي وحسّنه بعض أهل الحديث).

6. **الأمانة والصدق:** وقد عُرف النبي صلى الله عليه وسلم في قومه قبل البعثة بـ«الصادق الأمين» كما تذكر كتب السيرة.

7. **العفو:** قال الله تعالى: «فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك» (آل عمران 159).

ثالثاً: ما ينبغي أن تحذره

وختم بقوله: «انتبه من ثلاثة أخطاء. الأول: أن تحصر الاتباع في **المظهر**، فتعتني بالهيئة وتهمل الخُلق. والثاني: أن تتخذ الاتباع **لقباً** تعلو به على الناس، فتقول: أنا على السنة وغيري لا. فقد قال تعالى: «فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى» (النجم 32). والثالث: أن **تنفر** الناس بالغلظة وأنت تظن أنك تدعوهم. أما قال الله لنبيه: «ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك»؟»

خطة سبعة أيام

وأعطاه خطة بسيطة، سنة واحدة كل يوم، ليتدرب عليها:

- **اليوم الأول:** البسملة وأكل باليمين، وقول «الحمد لله» بعد الطعام.
- **اليوم الثاني:** ابتسامة صادقة في وجه كل من تقابل.
- **اليوم الثالث:** عمل في البيت بيدك دون أن يُطلب منك.
- **اليوم الرابع:** ركعتان من الضحى، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم إن على كل مفصل من الإنسان صدقة، ويجزئ عن ذلك ركعتان يركعهما من الضحى (رواه مسلم).
- **اليوم الخامس:** صيام الاثنين أو الخميس، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتحرى صيامهما (رواه الترمذي وحسّنه).
- **اليوم السادس:** صلة رحم: زيارة أو اتصال.
- **اليوم السابع:** الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بحضور قلب، وقراءة صفحة من سيرته.

ابتسم هاشم وقال: «وأخي؟ ماذا أقول له؟»

قال عم سالم: «لا تقل له شيئاً. أحسن خلقك معه. وإن سألك: هل صرتَ شيخاً؟ فقل: لا، لكني أحاول أن أكون أخاً أفضل.»

وفي الجمعة التالية، حين عاد هاشم إلى بيت أمه، ورأى أخاه الأصغر يبحث عن مفتاح سيارته بعصبية، سأله بهدوء: «هل أساعدك؟» ووجد المفتاح تحت الأريكة. نظر إليه الأخ نظرة طويلة ولم يعلق، لكنه لم يسخر منه في تلك الليلة.

وصية العابد

كن محمدياً بالمنهج: اتبع بلا ابتداع، واعتدل بلا غلو، وتعلم قبل أن تعمل. وبالسلوك: ارفق، واضبط غضبك، وخدم أهلك، ويسّر، وابتسم، واصدق، واعفُ. ولا تجعل الاتباع لقباً ولا مظهراً.

المقام العشرون

20 المحبة

كان مرض عم سالم قد بدأ يظهر منذ الشتاء: تعب في الصدر وسعال يطول. وقد زاره الطبيب مرتين وأعطاه دواءً، لكن الرجل ظلّ يرفض الذهاب إلى المستشفى بحجة أن البحر أولى به.

في إحدى الجمع، جلس هاشم عند رأسه وسأله: «كيف تحب الله يا عم سالم؟ أقصد: ما معنى المحبة عندك؟ أنا أخافه وأرجوه، لكنني لا أعرف إن كنت أحبه.»

سكت عم سالم قليلاً، وفي عينيه ما يشبه ابتسامة.

الدرس السابع: المحبة

قال: «هذا سؤال يخاف منه كثيرون. قال الله تعالى: «يحبهم ويحبونه» (المائدة 54). وقال: «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله» (آل عمران 31). وهذه الآية تضع ميزاناً للمحبة: **الاتباع**. فمن ادعى حباً لله ولم يتبع رسوله صلى الله عليه وسلم فدعواه ناقصة. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين» (متفق عليه).»

ثم قال: «وقد تكلم أهل الطريق في المحبة كثيراً. اشتهرت **رابعة العدوية** (القرن الثاني الهجري) بما نُقل عنها في حب الله لذاته، وعقد **الغزالي** في *الإحياء* كتاباً للمحبة والشوق والأنس والرضا، وفصّل **ابن القيم** في *مدارج السالكين* في المحبة. لكن احذر: بعض ما يُنسب إلى هذا الباب من عبارات الشوق والعشق مبالغ فيه أو يوهم بما لا يليق. وقد قال العلماء: **المحبة الصادقة لا تُسقط تكليفاً.** فمن قال: أنا أحب الله فلا أصلي، فهو مخطئ.»

وأعطاه ما سمّاه **مفاتيح المحبة** (ذكرها الغزالي ومن بعده على أنحاء مختلفة):

1. **معرفة النعم:** فالنفوس مجبولة على حب من أحسن إليها.
2. **تلاوة القرآن بتدبر:** فمن أحب كلاماً أحب قائله.
3. **قيام الليل ولو ركعتين:** لحظة خلوة بين العبد وربه.
4. **الإكثار من الذكر.**
5. **تقديم ما يحبه الله على ما تحبه نفسك حين يتعارضان.**
6. **مجالسة الصادقين.**

وقال في النهاية: «وتذكّر: الحب في هذا الطريق ليس شعوراً تنتظره، بل **عمل** تزرعه. فازرع الأعمال، والله يرزقك الأنس إذا شاء. فإن لم يأتِ فلا تحزن، فالأحوال لا تُطلب لذاتها.»

وصية العابد

المحبة تُزرع بالأعمال: اعرف النعم، وتدبّر القرآن، وقم ولو ركعتين، واتبع الرسول. وإن لم يأتِ الأنس فلا تحزن، فالأعمال هي الطريق.

21

المقام الحادي والعشرون

كلنا فقراء

في تلك الليلة اشتد السعال على عم سالم، وأحس هاشم بأن الأمر أكبر مما قيل. اتصل بأخي الرجل، وجاء الطبيب في الصباح الباكر، وقال بعد الفحص بنبرة حذرة: «يجب أن ينتقل إلى المستشفى. حالته أسوأ مما ظننا.»

نظر عم سالم إلى سقف الغرفة وقال بصوت واهن: «الحمد لله.»

وبينما ينتظرون سيارة الإسعاف، قال لهاشم: «اقترب. أريد أن أقول لك شيئاً.»

الدرس الثامن: الافتقار

قال عم سالم: «قال الله تعالى: «يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد» (فاطر 15). وهذا من أعمق ما في الطريق: أن تعلم أنك **فقير** إلى الله في كل لحظة، في الأنفاس والرزق والعافية والهداية. وفي الحديث القدسي في صحيح مسلم: «يا عبادي، كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم. يا عبادي، كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم.»»

ثم قال: «وفي *الحِكَم* لابن عطاء الله حكمة تختصر الأمر: «أصل كل معصية وغفلة وشهوة: الرضا عن النفس. وأصل كل طاعة ويقظة وعفة: عدم الرضا منك عنها». فمن رضي عن نفسه وقف، ومن شعر بالافتقار سار. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو: «اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله» (رواه أبو داود وحسّنه بعض أهل الحديث).»

وأضاف بصوت يتقطع: «وهذا هو سر ما قلته لك أول يوم: **الحمد لله أنك تشعر بأنك لا تشعر**. من يعرف أنه لا يعرف قد فتح باب التعلم. ومن يعرف أنه فقير قد فتح باب الغنى.»

قال هاشم والدمع في عينيه: «وأنا فقير إليك أيضاً يا عم سالم.»

ابتسم الرجل ابتسامة تعبة: «لا. أنت فقير إلى الله. وأنا كنت وسيلة. فاعرف الوسيلة ولا تتعلق بها. والآن، خذ هذا الدفتر.»

ومدّ إليه الدفتر الأخضر القديم.

وصية العابد

كلنا فقراء إلى الله في كل لحظة. فلا ترضَ عن نفسك، واطلب الهداية والرزق والعافية منه، وقل: «اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين».

المقام الثاني والعشرون

22 ما ينتفع به

بعد أسبوع من انتقاله إلى المستشفى، توفي عم سالم في ليلة هادئة. كان هاشم إلى جواره، يمسك يده. لم يكن هناك ما يُقال. في آخر لحظة نظر إليه عم سالم، وابتسم، ونطق الشهادة بصوت خافت كأنه يخشى أن يوقظ أحداً.

وفي الصباح التالي، حمل الصيادون نعشه على أكتافهم إلى المسجد القديم، والبحر يهمس خلفهم، والنوارس ترتفع وتنخفض في الأفق. ورأى هاشم من آخر الصف وجوهاً كثيرة لم يرها قط، لكنها كلها تعرف عم سالم: امرأة الفرن، وصبي القرآن، وعامل الورشة، وصيادون كانوا يستدينون منه فلا يطالبهم، ومعلم المدرسة. كلهم قالوا الجملة نفسها: «ما سمعناه يرفع صوته مرة.»

الدرس التاسع: العمل الذي لا ينقطع

وبعد الدفن، جلس هاشم على الصخرة نفسها التي كانا يجلسان عليها، وفتح الدفتر الأخضر. وفي آخر صفحة كتب عم سالم بخط مرتجف:

«قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» (رواه مسلم). وقال: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله» (رواه مسلم). يا هاشم: أنا لا أخاف

الموت. وأرجو أن أكون أحسنت الظن. وإن كان في ما علّمتك علمٌ ينتفع به فعلّمه. وإن رأيت رجلاً يقلّب الملعقة في كوب فارغ فاجلس إليه.»

بكى هاشم بصوت منخفض، ثم رفع رأسه إلى البحر. كان الأفق يتفتق عن شمس باهتة، والموج يعيد حديثه الأزلي.

وبعد شهور، صار هاشم يجلس بعد الفجر على عتبة المسجد القديم، وحوله ثلاثة شباب يسألونه عن الدفتر. لم يقل لهم أنه صار معلماً، ولم يقبل أن يناديه أحد شيخاً. كان يقول: «اسمي هاشم. وما سأقوله لكم تعلمته من رجل كان يقول: لست شيخاً.»

وفتح الدفتر على صفحته الأولى، وقرأ لهم الأسئلة الثلاثة.

وفي أقصى المسجد، عند عمود رخامي قديم، جلس شاب لا يعرفه أحد، يقلّب هاتفه ويحدق في الأرض. نظر إليه هاشم نظرة سريعة، فرآه، فابتسم بهدوء. ثم أكمل حديثه مع الشباب الثلاثة، وبعد الصلاة سيذهب إلى الشاب.

وكان البحر يهمس في الخارج: **الحمد لله أنك تشعر بأنك لا تشعر.**

كلمة أخيرة من أخيك

يا أخي القارئ، هذا آخر الطريق في هذا الكتاب، وأول طريق في حياتك.

لقد رأيت في هذه الرحلة أن للقلب منازل: يقظة، ثم محاسبة، ثم توبة، ثم ذكر وصحبة وخشوع، ثم زهد ورضا ونفع، ثم مراقبة وإخلاص وصدق، ثم توكل وشكر وحياء، ثم محبة وافتقار. وهذه كلها أبواب لا تُفتح كلها في يوم، ولا تُتقن كلها في عمر. لكن من فتح واحداً وأحسنه فقد سار.

لا تطلب الأحوال، واطلب الأعمال. ولا تُظهر ما تجد، وإن وجدت شيئاً فاشكر وأخفِ. ولا تحتقر خطأك، ولا تيأس منه. وإن مررت يوماً بمن هو أضيع منك، فاجلس إلى جواره.

واذكر عم سالم بدعوة. فإن العلم الذي ينتفع به لا ينقطع بموت صاحبه.

خاتمة الكتاب

وصايا العابد

خ

1. اليقظة قرار، فاجعل لها وقتاً صغيراً ثابتاً.
2. حاسب نفسك بثلاثة أسئلة، وأصلح برفق.
3. تُب بلا قنوط: أقلع وندم واعزم وارجع.
4. وردٌ قليل ثابت بقلب حاضر خير من كثير غافل.
5. اجعل الكتاب والسنة ميزاناً فوق كل شيخ.
6. الخشوع عودة لا كمال.
7. الزهد ألا يملكك ما تملك، فاخفِ ظهورك وتصدق خفية.
8. الرضا طمأنينة مع أخذ الأسباب، فلا تحمل الحزن وحدك.
9. من أخذ فليعطِ: ارحم من في الأرض، واجلس إلى الضائع.
10. اجعل لك ثلاث وقفات: قبل الكلام، وقبل العمل، وقبل النوم.
11. اسأل قبل كل عمل: هل أفعله لو لم يعلم به أحد؟
12. قل «لا أعلم» ولا تعِد بما لا تملك، فالصدق يوفر عليك كثيراً.
13. اعقلها وتوكل: خذ بالأسباب كلها ثم سلّم النتيجة.
14. اكتب ثلاثة أشياء جديدة كل ليلة تشكر عليها.

15 استحِ من الله في الخلوة، واحمِ الباب بنفسك.

16 أحبّ آل بيت نبيك محبة تظهر في صلاتك ودعائك وصلة رحمك، بلا غلو ولا جفاء.

17 زُر لتدعو وتتذكر الموت لا لتعبد، واسأل الله وحده.

18 ابدأ بما يتفق عليه المسلمون قبل ما يختلفون فيه، وانصح برفق.

19 كن محمدياً بالاتباع بلا ابتداع، وبالاعتدال بلا غلو، وبالخلق: رفقاً وصدقاً وخدمة لأهلك.

20 المحبة تُزرع بالأعمال، فاتبع الرسول وتدبّر القرآن وقم ولو ركعتين.

21 كلنا فقراء إلى الله، فلا ترضَ عن نفسك.

22 علّم ما تعلمت ولو لواحد، فهو علم ينتفع به.



ميزان الكتاب

في ختام الطريق

عرفنا في أول الكتاب أن الطريق **يبدأ بالعين**، وعرفنا في آخره أنه **ينتهي بالقلب**. فالعين تنتبه، والقلب يحضر، والقلب الحاضر يصلح ما سواه. وبين الاثنين تتدرج المنازل: الظاهر فالباطن، والأخذ فالتسليم، والعمل فالمحبة، والفقر فالغنى.

ولنا أن نتأمل مفارقة في آخر الطريق: أن **أعمق** المقامات هي **أبسطها** في الظاهر. فالافتقار كلمة واحدة: «اللهم لا تكلني إلى نفسي». والمحبة عمل صغير مستمر. والمراقبة ثلاث وقفات. وهذا من حكمة الله: أن جعل أعظم الأشياء أيسرها في اللسان وأصعبها في الثبات.

والآفة الكبرى لمن بلغ شيئاً من هذه المنازل **الإعجاب بها**. فالمقام نعمة لا استحقاق، والحال هبة لا ثمن. ومن أعجب بمقامه سقط منه، ومن شكر وستر حُفظ له. ولهذا جعل ابن عطاء الله الافتقار أصل كل طاعة: لأن من عرف فقره حفظ نعمته.

والدرس الأخير مما فعله عم سالم لا مما قاله: أنه **علّم ثم اختفى**. فلم يترك كتاباً ولا مدرسة ولا طريقة تحمل اسمه، بل ترك رجلاً يعلّم آخر. وهذا أنقى وجوه العلم الذي ينتفع به.

وخلاصة الكتاب في سطر: **اعرف أنك مرئي، وأخلص، واصدق، وخذ بالأسباب وسلّم، واشكر واستحِ، وأحبّ واتبع، واعرف فقرك، ثم علّم غيرك واختفِ.**

توثيق

ملاحظة المؤلف عن المصادر

ن

الآيات من القرآن الكريم بالسورة والآية. والأحاديث بالراوي، وقد ذكرت الدرجة حيث اختلف المحدّثون، فراجع كتب التخريج للتأكد. وأما أقوال الصالحين والكتب المذكورة فنقلتها من الذاكرة، وهي: منازل السائرين لأبي إسماعيل الأنصاري الهروي (اليقظة والصدق من المنازل)، ومدارج السالكين لابن القيم (المراقبة والمحبة)، والرعاية لحقوق الله للحارث المحاسبي، وإحياء علوم الدين للغزالي (كتاب المحاسبة والمراقبة، وكتاب المحبة والشوق والأنس والرضا)، والحِكَم العطائية لابن عطاء الله السكندري، ورياض الصالحين للنووي (شروط التوبة)، والرسالة القشيرية (التفريق بين المقام والحال، وتعريف المراقبة، وقول الجنيد في ضبط الطريق بالكتاب والسنة). وما نُسب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه من قول «حاسبوا أنفسكم» مشهور عنه وإن اختلف في إسناده. وما نُسب إلى الفضيل بن عياض في الرياء والإخلاص مشهور عنه، وما نُقل عن رابعة العدوية في المحبة تتباين فيه الروايات. ودعاء الاستخارة ثابت في صحيح البخاري، وحديث «اعقلها وتوكل» رواه الترمذي وحسّنه بعض أهل الحديث وضعّفه آخرون. والطرق الصوفية

وأعلامها المذكورون (الشاذلي والمرسي وابن عطاء الله والبدوي والدسوقي والرفاعي والجيلاني) أسماء معروفة تاريخياً، وتختلف الآراء في الحكم على ما نُسب إليهم أو إلى طرقهم من ممارسات.

وفي جزء المودة في القربى: صحيح مسلم (حديث عائشة في الكساء، وحديث زيد بن أرقم «أذكّركم الله في أهل بيتي»)، وصحيح البخاري (قول أبي بكر الصديق في أهل البيت، وتفسير ابن عباس للآية 23 من سورة الشورى، وحديث «لا تُشدّ الرحال»)، وسنن الترمذي (حديث «سيدا شباب أهل الجنة»، وحديث أم سلمة في الكساء). وما نُسب إلى الإمام الشافعي من أبيات في حب آل البيت ذكرته بالمعنى. وما ذُكر من مشاهد في القاهرة (الحسين، زينب، نفيسة، سكينة، رقية) تختلف الروايات التاريخية في نسبة بعضها وموضع بعضها. وفي فصل المنهج والسلوك: صحيح البخاري (حديث الثلاثة نفر، «كان في مهنة أهله»، «إن الدين يسر»)، وصحيح مسلم (حديث «ما كان الرفق في شيء»، وصلاة الضحى، وقول عائشة «كان خلقه القرآن»)، وسنن الترمذي وأبي داود (حديث «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً»، «خيركم خيركم لأهله»، «تبسمك في وجه أخيك»)، ومسند أحمد (حديث «إنما بُعثت لأتمم صالح الأخلاق» وحديث خصف النعل وخياطة الثوب). ودرجات بعض هذه الأحاديث تختلف فيها أقوال المحدّثين، فراجع التخريج. والخلاف في التوسل وشدّ الرحال وبناء المشاهد خلاف بين علماء معتبرين، فراجع كتبهم وسل أهل العلم في بلدك.

أما الأشخاص (هاشم وعم سالم) فمن خيال المؤلف. وهذه رواية للتزكية والاعتبار، وليست مرجعاً في الفتوى. فمن احتاج حكماً شرعياً فليسأل أهل العلم الموثوقين في بلده، ومن احتاج علاجاً نفسياً أو طبياً فليراجع الطبيب.

تمّت الرواية

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

يقظة قليلة. ورد ثابت. وقلب يعود كلما شرد.